بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الأستاذ الجليل الشيخ محمد يوسف البنوري أستاذ الحديث بدار العلوم الإسلامية بباكستان

الحمد لله رب العالمين وحده، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد خاتم النبيين من لا نبي بعده، و على آله و صحبه الذين حفظوا للإسلام عزه و مجده، و على حملة العلم الذين ينفون عنه تحريف الغالين و انتحال المبطلين و تأويل الجاهلين، فبلغ فيه كل جهده.

أما بعد فكنت قرأت كلمة في (طبقات ابن سعد) (ج 2 ص 105) بإسناد صحيح إلى مسروق ذلك التابعي الكبير من رجال الكوفة في حق حبر الكوفة و حبر القادسية و أقربهم إلى الله زلفى عبدالله بن مسعود قال: لقد جالست أصحاب محمد صلى الله عليه و سلم فوجدتهم كالأخاذ، فالأخاذ يروي الرجل و الأخاذ يروي الرجلين و الأخاذ يروي العشرة، و الأخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبدالله بن مسعود من ذلك الأخاذ.

هذه كلمة كنت قرأتها، رأيتها صدقت في عهدنا هذا على محقق العصر، الجهبذ الناقد البحاثة الخبير، الشيخ محمد زاهد بن حسن الكوثري المتوفى في ذي القعدة سنة 1371 هـ. سواء بسواء. فكان رجلا يتجلى فيه بعصره هذه المزية بأجلى منظرها. رجل جمع بين غاية سعة العلم و الاستبحار المدهش و دقة النظر، و الحافظة الخارقة للعادة و الاستحضار المحير، و الجمع بين علوم الرواية على اختلاف فروعها و شعبها، و علوم الدراية على تفنن مراميها و مقاصدها، و بين رقة الشمائل و مكارم الأخلاق، من التواضع و القناعة بالكفاف، و الورع و التقوى، و الصبر على المكاره، و كرم النفس، و السماحة بخزائن معارفه و دفائن علمه، مع علم واسع بنوادر المخطوطات في أقطار الأرض

و خزانات العالم، ثم الغيرة على حفظ سياج الدين، و إبداء وجه الحق إلى الأمة ناصع الجبين، كل هذا مع جمال منظر و سيماء، و قوة هيكل و أعضاء، فصدق فيه قول الله عز و جل [و زادهم بسطة في العلم و الجسم] (البقرة: 247) و على الرغم من كل حاسد أذعنت القلوب لفضله و نبله، و سعة علمه و اطلاعه.

و لا تزال هذه الأمة تباهي بأفراد و أفذاذ في كل قرن من القرون المزدهرة بجمال العلم، بيد أن الله سبحانه يخص قرنا بعد قرون بمن يكون نظري نفسه، و نسيج وحده، لا يشق له غبار و لا يساجله أحد، و أرى أن الكوثري ممن من الله به بعد دهور متطاولة في بلاد الأتراك، نشأ في بيت العلم، في مركز العلم، في مركز العلم، و رزق قريحة وقادة، وطبيعة نزوعة إلى التوسع، و نشيطة في المكابدة لا يحول دونها ملل و لا سآمة، و تلقى العلوم من جهابذة عصره، و غرر وقته، و كانت بلاد الآستانة ينابيع فياضة بنفائس المخطوطات، و عيونا ثرة متدفقة بنوادر الكتب، ففتح عينيه، و شاهد عن يمينه و شماله و خلفه و أمامه مكاتب طافحة بالجواهر الثمينة، فترعرع فيها شابا و مكتهلا يتضلع من منابعها الصافية بكل وراء، ثم غربل مكاتب دمشق و القاهرة شيخا مجربا، و فوق كل ذلك أنه طلب العلم للعلم أولا، ثم طلبه للحق ثانيا، و أرى أن العلم كماله و جماله لا يحصلان إلا بهذا المنحى البديع.

لست أريد الخوض في غمار خصائصه و مميزات علمه، فإن أمامنا مقالاته و أبحاثه و هي شهود مقانع على ما أشرت إليه و من مزاياه، فترى فيها ثروة علمية فياضة، يتدفق تيارها في كل ناحية من مناحي التحقيق و البحث، روايتها و درايتها، فقهها و حديثها، كلامها و معقولها، أدبها و تاريخها، بكل دقة و بكل نصفة و بكل ديانة و بكل أمانة، ثم كل ذلك بكل صراحة لا يشوبه نفاق و لا مداهنة و لا مواربة، قياما لخدمة الحق بما يقتضيه الحق، و نصيحة للدين بما يستدعيه الدين.

قرأت الكوثري من قريب و قرأت للكوثري من قريب و من بعيد، و أرى أن الحق – و الحق يقال – أن القوم لم يقدروا الكوثري بما يستحقه من تقدير و إجلال ذلك المحقق، و ذلك البحاثة الناقد، و ذلك الخلق الجميل، و النبل الجزيل بمعنى الكلمة.

بين يديك أيها القارئ الكريم (مقالات الكوثري) أجل فيها قداح نظرك الغائر تر كل مقالة و كل موضوع يترقرق فيه علم غزير فياض. و لا أرى بأسا أن أذكر أمهات خصائص مقالاته و كتاباته فيما يلي إجمالا ليكون القارئ بصيرا خبيرا، يتذوقه ذواقا قبل تعاطيه، و تأخذه الأريحية قبل أن يرشح الإناء بما فيه:

كل ما كان يكتب أو أراد أن يكتب يكون الحامل عليه الذب عن عوزة الدين الإسلامي و الانتصار للحق، دون أن يكون مرماه إبداء تحقيق فقط، أو مغزاه رجاء ثناء الناس عليه. فترى تأليفاته و تعليقاته و مقدماته و مقالاته كلها لا يشذ عن ذلك ذرة.

كل موضوع كتب فيه لا تجد نقلا من غرر النقول في بابه من قرب أو بعد إلا تشاهده هناك بين يديك من مظانه و غير مظانه و من بطون المجلدات و من بطون الخزانات الدولية أو الشخصية، فتجد غرر النقول مما لا يتلقى بشق الأنفس ماثلة أمامك بكل حسن و جمال.

كفى و شفى ما في الصدور و لم يدع لذي إربة في القول جدا و لا هزلا

كل موضوع ترى في تحليله آراء ناضجة، و أفكار صائبة، و عللا للبحث شافية وافية، هي نتيجة للبحث الطويل، و التفكير العميق، و العلم الوافر، و السعي المتواصل مما لا يقوم بمثله إلا جهابذة العلم و صيارفة النقد.

أسلوبه في الكتابات مع تجليه بأحلى مظهر الأدب و النزاهة يغاير أسلوب عامة المتأنقين. و ربما يحس بعض المستأنسين بلين القول و رفق اللهجة، خشونة في الرد، و قسوة في الدفاع، و إنما هي نتيجة حرارة دينية، و حماسة طبيعية، الحق عنده أحب إليه من كل شيء باطل، و الصدق أقرب إليه من كل وزر، فطبعا تتغير لهجة الرد على الكلام المردود بما يقتضيه قربه و بعده من الحق، فهو سمح هين لين مع كل من ضاع صوابه خطأ، و أما من أراد التلبيس في الحق أو التدليس في الدين فهو معذور في ذلك لا يستطيع اللين معه. فانظر – رعاك الله:

رجل يذكر أبا حنيفة الإمام في المسجد الحرام بأبي حنيفة! فكيف هو يقدر أن يلين معه القول. انظر كتابه (النكت الطريفة في التحدث عن ردود ابن أبي شيبة على أبي حنيفة) و انظر (تأنيب الخطيب فيما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب) تجد في أسلوبهما فرقا بينا، تجده في الأول موادعا سمحا لينا، في حين تراه في الثاني هزبرا مزيرا.

و قصارى القول أن أسلوبه يتفاوت في الشدة و اللين بملبغ الخطورة في الكلام المردود. و ليت شعري إذا لم يكن هذا من قبيل الحب في الله و الغضب في الله فماذا يكون؟ ترى الناس يستشيطون غيظا إذا كانوا هم أهدافا للملام و الطعن، و تراهم أرحب صدورا إذا فوقت السهام إلى دين الله و سنة رسوله! فذاك التحامل و هذا التحالم و التحمل كل في غير موضعه أم شنيع! و يعجبني قول الكوثري في (ص 336) أما الكوثري فهو – و لله الحمد – ناصع الجبين جبان رعديد، لا يجترئ على تخطي حدود ما أنزل الله في ذاته و صفاته و أحكام شريعته، لكنه بطل كرار، حنيفي حنفي يهد الأصنام كبيرها و صغيرها، و يسحق رءوس عبادها بمقامع الحجج من الكتاب و السنة و المعقول ما دام له عرق ينبض ... الخ.

كل كتاب أو مقالة لأحد ممن يجله و يحترمه إذا ظهر له فيه بعد من الصواب من أية ناحية لا يحول دون الرد عليه صلته بالمؤلف الكريم بالإجلال و التعظيم[1]، فإن الحق أحب إليه من كل شيء، انظر كتابه (الاستبصار في الجبر و الاختيار)؛ حيث رد به مزالق الشيخ مصطفى صبري متكلم عصره، و كذلك رده في عرض كلامه في بعض كتاباته على فضيلة المغفور له الشيخ محمد بخيت المطيعي.

لا تجد في كل ما يكتب كلمات جوفاء، و لا تمهيدا فارغا، و لا بسطا مستغنى عنه في الموضوع، و إنما يكتب حينما يكتب صفوة و لبابا، و روحا و جوهرا، لا يمكن لأحد أن يلخص كلامه.

* و ما محاسن شيء كله حسن *

فليس هو يأتي بحشو في البين، و لا هو يخرج من الموضوع، و هذا أسلوب متين كالبنيان المرصوص يخضع له كل ذوق سليم.

هو محتاط متثبت في النقل، متيقظ لكل مدلول الكلام مطابقة و التزاما بكل صنوف الدلالات، انظر أبلغ كتابة له في الرد على نونية ابن القيم و أقسى لهجة في كتبه هل تجد فيه مغمزا؟ و كان سيفا صقيلا، و صارما مسلولا، و مهندا مشهورا، لم يستطيعوا فله فيه رواية و لا دراية في عشرين سنة مع غاية عدائهم إياه في هذا الموضوع.

لا يأتي في الاستدلال بأمور ذوقية أو وجدانية لا تقوم بمثلها حجة على الخصم، و إنما يأتي ببينات واضحة تقوم بمثلها حجة على رءوس الأشهاد.

---

[1] هكذا في الأصل، و لعلها (بقطع النظر عن صلته بالمؤلف و أنها بالإجلال....). اهـ. مصححه.

هو متصلب في المعتقد كصخرة صماء، منتصر للماتريدية غاية الانتصار حارس متيقظ، يذب عن حريم الحنيفية كل حملة شنعاء، و لا تجد لصارمه نبوة و لا لجواده كبوة في هذا الصدد، و هذا غاية ما يؤخذ عليه، و لكني أقول متمثلا:

و عيرني الواشون أني أحبها و تلك شكاة ظاهر عنك عارها

أو أقول:

و لا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

و بالجملة فهذه أمهات خصائصه، و مميزات مقالاته و كتاباته و تأليفاته، و يطول بنا القول لو أخذنا في سرد شواهد و بينات من غصون رسائله و مؤلفاته. و قد حان لي أن أشير إلى قطيرات و رشفات من بحر مقالاته بما يكون دليلا للسالك، و ابتهاجا للقارئ الكريم، كل ذلك بإيجاز و اختصار:

هذه المقالات و صل إلي منها إلى (ص 338) و لها بقية فيما أرى لكن لا أدري كم بقي منها، مبدؤها بمقالة في المصاحف و منتهاها بمقالة في الصراع بين الوثنية و الإسلام، و هذه خمس و خمسون مقالة بين طويلة و قصيرة كلها شاهد صدق على طول باع صاحبها في جميع علوم الإسلام، و مشاركته في الفنون سائر علماء الإسلام، و براعة يترقرق خلالها مهاراته البديعة، و حسن تصرفه في التعبيرات، و التنبيه على مقاصد الشرع بكلام إمام محقق خبير بما في الزوايا، بصير بما في الخبايا، حكيم متغلغل في غايات الدين و مبادئه و أصول الدين الأساسية: عدة مقالات منها كلامية، و طائفة منها حديثية، و بعضها في التفسير و القراءات، و بعضها في الفقه و أصوله، كلها يرمي إلى غاية

سامية في دين الإسلام، و يصادف الناظر في كل منها شيئا طريفا بديعا. فدونك قولا ملخصا في حقائقها و الإشارة إلى أمثلتها:

فقوله في (ص 101) في مقالة مصاحف الأمصار: و تردد الصديق بادئ بدء (أي في كتابة القرآن الكريم) إنما كان بملاحظة أن ذلك ربما يكون سببا للتواكل في حفظه، و التكاسل في استظهاره، لا باعتبار التحرج من الكتابة، قال الله تعالى: [رسول من الله يتلو صحفا مطهرة] (البينة: 2) فأنى يتصور التحرج من كتابة آيات السور في الصحف مع وجود هذه الآية الكريمة الخ. كلام متين. و كلامه في مصاحف البلاد و توارثها في القرون كلام في غاية التحقيق. و تحقيقه في وجود المعوذتين و الفاتحة في مصحف ابن مسعود و قراءته تحقيق بارع يسكن إليه القلب. و كلامه في (ص 123، 124) في التنبيه على دخائل مستشرقي الغرب مع قيامهم بنشر المؤلفات كلام حاذق خبير يعلم ما وراء الأكمة، و المقالة هذه كلها في غاية التحقيق، و في غاية الحسن و الجمال.

و المقالة الثانية في الأحرف السبعة كلها يدل على تغلغل في علوم القراءات و التفسير، و فيها تنبيهات و نفائس لا يستغني عنها محقق باحث، و قوله الفيصل في هذا المعترك الضنك مما يقضي لصاحبه بالبراعة، و سكونه إلى قول الإمام الطحاوي في ذلك ثمرة بحثه الواسع و فكره الناضج، و المقالة الثالثة في تحقيق الصوت على قصرها متينة جيدة منقحة، و أكثر النقول فيها بعيدة عن متناول أهل العلم. و الرابعة في كعب الأحبار و الإسرائيليات و رأيه فيها في (ص 127) بقوله: و هذا منهج سديد إلى قوله: و هذا اعتذار وجيه. في غاية الحسن و الوجاهة. و في الخامسة قوله: (ص 138) ثم إن قول النقاد في الحديث إنه لا يصح الخ تنبيه مهم. و السادسة في الأحاديث الضعيفة المقالة كلها كالمقدمة المهمة للمشتغلين بالحديث.

و في أسطورة قتل المرتدة تجد نموذجا من مهاراته برواة الحديث، و براعته في النقد بذوق فقهي و حديثي. و مقالته في حديث معاذ بن جبل في حجية القياس مقالة في غاية الجودة و نموذج صحيح من علومه في الحديث و رجاله، و الفقه و أصوله في وقت واحد. و مقالته في حديث (لا وصية لوراث) فيها من غرر النقول على أن مضمون الحديث مسألة إجماعية. و في حديث التشبيه: نقله لكلام ابن تيمية من (اقتضاء الصراط المستقيم) يدل على رحابة صدره و أن عداءه لابن تيمية إنما هو في شواذه و معتقداته الخاصة. و مقالته في أحاديث الأحكام: تحدثنا مما أتاه الله من الاطلاع الواسع، و البصيرة النافذة. و كلمته عن موطأ مالك و رواته نتيجة على منخول مغربل في الرجال و الطبقات و كلمته عن (فتح الملهم في شرح مسلم) تدل على تقديره لرجال العلم و رحابة صدره للثناء على أهل عصره من غير منافسة و لا منافرة.

و مقالاته في الدين و الفقه، و في شرع الله في نظر المسلمين، و في عدم استثناء الإمام من قوانين الشرع و أنه ليس لغير الله حق في التشريع. و مقالته حول فكرة التقريب بين المذاهب. و مقالته في أن اللامذهبية قنطرة اللادينية، و كلمته في خطورة التسرع في الإفتاء –كل هذه المقالات – لها قيمتها العلمية من تحقيقات رصينة و أفكار متينة، و تنبئ من ناحية أخرى عن غيرته على صميم الدين، و حفظه حوذة الإسلام و سياج الشريعة الغراء، و الصراحة بالحق و الإجلال للأئمة المتبوعين، و السلف الصالحين، مع ما يلمع من خلالها من تلك الثروة الهائلة العلمية التي تفرد بها الشيخ في أفاضل عصره بكل وضوح و جلاء، و الله يختص برحمته من يشاء.

و مقالته في عدم سقوط الجمعة عمن صلى العيد فيها بحث مستفيض من كل جهة، و هي من خصائص الكوثري. و مقالته في الصلاة في النعال مقالة لم يترك لشفرة محزا و أجاد فيها كل الإجادة. و المقالات الثلاث في الوقف قيمة جدا من جهة التمحيص و التنقيح و إبداء حكمة التشريع، و حسن المجادلة لآراء الخصم. و كنت أود أن لو دخل

الشيخ المحقق في عدة من مسائل الوقف مما يحتاج إلى تنقيح و تمحيص، و لو كان ذلك لملأ الفراغ الملموس، و لكنه – رحمه الله – على عادته اكتفى بما طالبته الظروف. و مقالة تعدد الزوجات على اختصارها متينة، و المقالة التالية لها دقيقة يتنبه لمثلها الكوثري. و مقالته تعدد الزوجات على اختصارها متينة، و المقالة التالية لها دقيقة يتنبه لمثلها الكوثري. و مقالته في بيان منشأ إلزام أهل الذمة بشعار خاص مقالة علمية فقهية حديثية تاريخية، ثم فوق كل ذلك أدبية في غاية الحسن و الانسجام تنجلي فيها أفكاره النقية بكل جلاء، و مقالته في الحجاب تعطيك صورة صحيحة عن خبرته الواسعة و علمه الصحيح، و معلوماته المنخولة، و قد جاء فيها بحل شاف لما اشتبه على كثير من الناس من أهل العلم في مسألة كشف المرأة الوجه و اليدين، و عدم الفرق بين عورة المرأة و مسألة الحجاب، و كلمة العلامة أحمد باشا العثماني في قابحة السفور و حسن الحجاب لأنهن لا يرغبن في أن يلدن من غير أزواجهن كلمة حكيمة طريفة توازي مقاله.

و مقالاته في نظر المرء إلى شرع الله، و مقالتاه في تحقيق المصلحة في الحكم فيها أبحاث أصولية و كلامية بديعة، و تنقيح جيد في الفرق بين المصالح المعتبرة و المصالح المرسلة، و بيان معاني الدليل و الأمارة و العلة و السبب و الشرط، و مقالته في العقيدة المتوارثة و ما بعدها من المقالات صورة صحيحة لعلمه الصحيح و غيرته على حريم الدين الإسلامي، و توجيهه في الحديث لحديث: (كانت الثلاث تجعل واحدة) إلخ توجيه في غاية القوة و استناده لقول الله عز و جل: [أجعل الآلهة إلها واحدا] (ص: 5)، و لقول النبي صلى الله عليه و سلم: (من جعل همومه هما واحدا) الخ استناد في غاية المتانة و الإحكام يكاد يلقم حجرا في أفواه المجادلين.

و مقالاته في الرد على من أنكر نزول عيسى عليه السلام، و في الرد على نقض الدارمي، و في خطورة القول بالجهة، و الرد على الحشوية المجسمة مقالات كلها تنبئ عن حمية دينية على حراسة معتقد أهل الحق من صولات أهل الزيغ

و صيانة لها عن تلاعب أيدي رجال سفهاء الأحلام، يسيئون إلى الإسلام و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، و فيها لفت أنظار أرباب الحل و العقد من أهل إدارة الأزهر الشريف إلى إصلاح شيءون الأزهر من جهة تربية الناشيءة الحديثة، و كلها في غاية الأهمية عند من رزق بصيرة في الدين و حمية على الشرع المبين، و غيرة على معتقد السلف الصالحين. فرحم الله الشيخ و ضاعف أجره، فقد كافح و نافح و ناضل عن الحق أي نضال و لا شك أن الاعتقاد بمثل هذه المخازي في دين الإسلام يجعله غرضا لكل طعن و هدفا لكل ملام، و يجعله عرضة للنبذ و الاحتقار في نظر الباحثين عن الأديان، و لا ريب أنه أعانه على هدم أساس الدين و نقض لعرى الدين الوثيقة من أناس متسمين بسمة الإسلام، فإنا لله و إنا إليه راجعون.

و مقالاته في الرد على القصيمي، و مقالته في تحذير الأمة من دعاة الوثنية و مقالته في أسطورة الأوعال، ثم مقالته البديعة التاريخية في فتن المجسمة، و رده على كتاب السنة لابن أحمد، و مقالته في الصراع الأخير بين الإسلام و الوثنية، كل ذلك مما دبجه يراع عالم متغلغل في حقائق الدين، بكل حماسة و صراحة لصيانة وجه الإسلام عن هذه الفظائع و المنكرات، جزاه الله عنا و عن الإسلام خيرا.

فيا أيها القارئ الكريم هذه إيماضات إلى قيمة هذه المقالات القيمة الثمينة لا حاجة بنا إلى إنهاء البيان بأكثر من هذا فإنها ماثلة أمامك، طف بين أغوارها و أنجادها فالعيان أكبر شاهد.

كنت أتمنى منذ زمن غير قصير في حياة الشيخ الكوثري جمع مقالاته و مقدماته في صعيد واحد حرصا على إبراز هذه النفائس القيمة من معادنها البعيدة حتى يستفيد منها كل مشتاق يقدر هذه الجواهر الغالية بين حنايا ضلوعه، حتى عرضت اقتراحي هذا على حضرة الشيخ نفسه، و وجهت المجلس العلمي بالهند إلى القيام بطبعها و لكن كانت هذه السعادة محتومة لصديقنا الفاضل الغيور على الدين فضيلة الشيخ رضوان محمد رضوان فقام بطبع تلك المقالات

البديعة بترتيب جيد في غاية الحسن – فجزاه الله عن العلم و الدين خيرا – و أود أن لو طبع مقدمات الكوثري على كتب شتى على هذا المنوال، فإني أرى فيه خدمة للعلم و نفعا لأهل العلم، فمقدمته على كتاب (الأسماء و الصفات للبيهقي) و مقدمته على (التبصير في الدين و تمييز الفرقة الناجية من الهالكين لأبي المظفر الإسفرايني) و مقدمته على (تبيين كذب المفتري لابن عساكر) و مقدمته على (نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي) و ما إلى ذلك من مقدماته و تقدماته على عشرات من الكتب فإن فيها من الفوائد و المغانم ما يساوي بعضها رحلة، و طالما اشتاقت لمثلها الأفكار و ابتهجت بطلعتها الأبصار:

حديثه و حديث عنه يعجبني هذا إذا غاب أو هذا إذا حضرا

كلاهما حسن عندي أسر به لكن أحلاهما ما وافق النظرا

هذا و الله ولي التوفيق و الهداية إلى سواء الطريق، و صلى الله على صفوة البرية سيدنا و سيد العالمين، و خاتم الأنبياء و المرسلين، محمد و آله و صحبه و بارك و سلم.

يوم السبت 6 ربيع الأول 1373 هـ.

كتبه الفقير إليه تعالى

محمد يوسف البنوري عفا الله عنه

بمنزله في قرية من مديرية حيد آبا السند – باكستان